الإنسانية تهدي إلى الإيمان بالله

أ. محمد القباطي*

الواقع أنّ الإنسانيّة وسيلة كبرى للوصول إلى الإيمان بالله، ذلك لأنها المركز الإشعاعي، الذي ينير السّبيل أمام صاحبها، فتتراءى أمامه الأشياء على حقائقها فإن سكنت قلبا نظيفا، هيأت إرادته للقيام بما تمليه عليه من كل ما فيه خير ونفع، ومن كل ما يمت إلى الإنسانية بصلة.

---

* أديب ومؤلف

في بداية الدعوة الإسلامية، كان سيدنا محمد عليه الصلاة والسّلام يذهب إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم ليتلو على المؤمنين القرآن الكريم، ويعلمهم أمور دينهم فأصدرت قريش أمرا يمنع الاتصال به، والاستماع إليه لكن أبا سفيان، وعمرو بن هشام والأخنس بن شريق، وهم الآمرون الناهون في قريش ذهبوا متسللين في خفاء تام دون أن يعلم كل منهم برفيقهم ليستمعوا إلى قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم إعجابا بالقرآن الكريم، وتلذذا بأسلوبه العضّ، ومعانيه الرّقيقه وعند عودتهم إلى أماكنهم كانت المفاجأة حيث التقوا في الطريق فتعاهدوا أن لا يعودوا لكنهم عادوا في الغد، ثمّ تعاهدوا مرة ثانية أن لا يعودوا.

إن أبا جهل، وصخرا، والأخنس، إنما دفعهم إلى الاستماع للقرآن الكريم مع مخالفتهم للرأي العام في قريش إعجابهم بأسلوبه، وبما ينطوي عليه من معان سامية، تنبو عما ألفوه من فصحاء العرب وبلغائهم. لا ريب أن ما سمعوه عند قراءة النبي(ص) للقرآن الكريم ليس كسائر الكلام المعهود وفي ضمن هذا اعترافهم بأنه كلام حقا وبأن من جاء به صادق في دعوته.

يشهد لهذا أن الأخنس بن شريق، العضو الثالث في المجموعة السرية سأل أبا جهل ـ فيما بعد ـ فقال: قل لي يا أبا الحكم هل محمد صادق في دعوته؟ قال: ما جربنا عليه كذبا. إذ كان جواب أبي جهل يتضمّن الاعتراف برسالة سيدنا محمد (ص) فما منعه من مبايعته على صدقه؟ لا شك أن من الأسباب التي منعته حميته الجاهلية، وقد صرح بذلك في جوابه للسائل ولو أن أبا جهل كانت إنسانيته هشة لينة كإنسانية عمر بن الخطاب (ض) لهدته إلى الإيمان بالله كما هدت ابن الخطاب إنسانيته.

أمر الله تعالى نبيّه محمدا (ص) بالجهر بالدعوة فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ[1]﴾، عندئذ تكاتفت قريش ضد الدعوة الإسلامية،

1. سورة الحجر: الآية 94.

وتحالفت على محاربة النبي (ص) والوقوف في وجه دعوته فدعا الله أن يهدي أحد الرّجلين فيستعين بشخصيته على تبليغ رسالة ربّه، فقال: (اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين عمرو بن هشام، أو عمر بن الخطاب) فاستجاب الله دعوته، وهدى عمر بن الخطاب (ض) إلى الإسلام فأسلم، واعتزّ به المسلمون، وشعروا عندئذ بقوة واعتزاز في صفوفهم، أسلم عمر بن الخطاب (ض) ولم يسلم عمرو بن هشام، مع أنهما كانا في مستوى واحد من الصلابة ضد الإسلام والمسلمين، فقد حاول كل منهما أن يفتك بالنبي (ص) لتتلاشى دعوته، وتذهب في وادي الإهمال، فقد حمل أبو جهل ـ مرة ـ صخرة عظيمة ليلقيها على النبي (ص) فنجاه الله في كيده واستل عمر بن الخطاب (ض) سيفه، وعزم على قتل النبي (ص)، فأثناه عن عزمه ابن عمّه: (نعيم بن عبد الله).

وهذا عتبة بن ربيعة أحد أقطاب المشركين، قد بعثته قريش إلى النبي (ص) ليحادثه فيما عسى أن يكون وسيلة للوصول إلى حل ما بين الطرفين من مشاكل وخلافات. قال عتبة: يا ابن أخي إنك منا قد علمت من السلطة في العشيرة، والمكانة في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جمعهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، فاسمع مني أمورا لعلك تقبل بعضها، فقال له النبي (ص): قل يا أبا الوليد. قال: إن كنت تريد بالذي جئت به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أغنانا وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك وإن كان الذي يأتيك رئيا تراه فلا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك. فقال النبي (ص): أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. فقال: اسمع مني، فقرأ من بداية سورة فصلت إلى السجدة، ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد فأنت وذاك. عاد عتبه بن ربيعة إلى قومه، فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، والله ليكوننّ لقوله نبأ عظيم.

إن عتبه بن ربيعة حين وصف القرآن الكريم بهذه الصفات الجليلة، المطابقة لحقيقته كان في قرارة نفسه على إيمان بصدق رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام ولكن هل آمن به فعلا؟ كلا، إنه لم يؤمن لأن إنسانيته التي تهديه إلى الإيمان به، إنسانية متحجرة. إن عتبة بن ربيعة هو الذي لفّ النبي (ص) في ثوبه عندما كان يصلي في البيت وأخذ يدور به في أرجاء المسجد حتى كاد يموت اختناقا، فلو كانت له إنسانية متفتحة لنهته عن القيام بهذا العمل المخيف، الذي تسمو عنه أفعال الصبيان والرّعاة وعتبة هذا هو الذي فتح باب القتال يوم بدر حيث برز إلى الميدان هو وأخوه شيبة، وولده الوليد يطالبون بالمبارزة، فلقوا جميعا مصرعهم جزاء تحجر إنسانيتهم.

فهل ذكرته إنسانيته باجتماعه مع النبي (ص) وسماعه منه القرآن الكريم، واعترافه لقريش بأن ما جاء به محمد وهو القرآن الكريم ما هو بالسحر، ولا هو بالشعر، ولا بالكهانة فيحجم لذلك، ولا يقدم على فعله السخيف إن الذي ورطه فيما قام به هو فقدانه للإنسانية.

وهذا الوليد بن المغيرة المخزومي من سادة قريش وعظمائها... فقد كان يتمتع بثراء واسع، وكان إلى جانب ذلك يقوم بإطعام الحجاج أيام موسم الحج دون أن يشاركه أحد من أغنياء العرب وصفه القرآن الكريم بما كان له من الغنى والترف فقال جل جلاله: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ[1]﴾.

هذا القرشي سمع مرة سيّدنا محمدً (عليه الصلاة وأزكى التسليم) يقرأ القرآن في المسجد، فأصغى إليه تلذذا وإعجابا بما سمع وعندما ذهب عند قومه بني مخزوم قال كلمته المشهورة، التي أصبحت مضرب مثل لدى بلغاء العرب، وسائر المتحدّثين عن أسرار القرآن الكريم قال: (والله لقد سمعت من محمّد آنفا كلاما ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجنّ،

1. سورة المدثر، الآيات من 11-15.

وإنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وإنّه يعلو ولا يعلى). فهل دفع الوليد إدراكه لأسرار القرآن الكريم إلى الإيمان به، وبالذي جاء به من عند ربّ العالمين؟ كلاّ، إنّما دفعه تحجُّرُ إنسانيته إلى نقض كلامه دون أن يشعر بما يلحقه من تشويه سمعته، وتكبير صفوه بالوعيد الذي نزل في شأنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ[1]﴾.

وهذا النضر بن الحارث، أحد مشاهير قريش، ومن أكثرهم حصولا على ثقافة تتلاءم مع روح ذلك العصر، وقد اكتسبها من كثرة أسفاره إلى الحيرة، حيث كان يقتبس من معارف الأمّة الفارسية التي كانت ـ آنذاك ـ على جانب كبير من الثقافة، يضاف إلى ذلك تلك الثقافة العربية التي كان يشترك فيها فصحاء العرب وبلغاؤهم كالوليد بن المغيرة، وعتبة ابن ربيعة، وسهيل بن عمرو.

هذا القرشيّ الشهير، النضر بن الحارث يصف النبيّ (ص) وصفًا دقيقا، يسدّ على الطاغين عليه جميع الثغرات التي يمكن أن يجلوها لبث سمومهم فيقول: يا معشر قريش، إنّه نزل بكم أمر، ما أوتيتم له بحيلة، قد كان فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر. لا، والله ما هو بساحر. لقد رأينا السّحرة ونفثهم، وعُقدهم وقلتم: كاهن. لا، والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر. لا، والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها مزحه ورجزه وقلتم: مجنون. لا، والله ما هو بمجنون، لقد رأينا المجنون، فما هو بخنقه، ولا بوسوسته، ولا تخليطه. يا معشر قريش فانظروا في شأنكم، فإنّه والله قد نزل بكم أمر عظيم.

---

1. سورة المدثر، الآيات من 18-27.

حلّل النضر بن الحارث ـ في كلماته ـ شخصية نبيّنا محمّد (ص) وما أحيط بها من خيوط الدعوة الإسلامية سدّ به جميع الأبواب على النقاد الذين يسعون لأن يجدوا ثغرة ينفذون منها للوصول إلى الطعن على شخصيته (ص) فيما جاء به.

وهنا السؤال: ما الذي يريده النضر بن الحارث من هذا التحليل الدّقيق لشخصية نبيّنا محمد (ص)؟ أيريد أن يدفع قريشا إلى التصديق بالرّسول الكريم فيما جاء به من عند ربّه، أم يريد أن يحضّها على التفكير الجدّيّ فيما يخوّل لها حجة دامغة تحج بها محمدًا (ص) أمام الرأي العام لتثبت لنفسها الغلبة، أم يكون فيما أتى به قد انساق وراء فطرته العربيّة التي تحمل العربي على أن يصدع بالحقّ وإن كان في غير صالحه وهذا نفس ما سار عليه كلّ من الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة في الثناء على القرآن الكريم كلّ هذا محتمل، لكنّ الذي نجزم به هو أن النضر بن الحارث ذو إنسانية متحجّرة، لم تفده في شيء ممّا يجعل لنفسه مقامًا محمودا هنا وهناك.

إنّ بين تفكير النضر وإنسانيته بونا شاسعا، يتمثّل في أن تحليله لشخصية نبيّنا محمّد (ص) يدلّ على أنّ له عقلا نيّرا يمتاز بالتفكير السديد، والتحليل الصحيح وأنّ ما كان يقوم به ضدّ الدعوة المحمّدية يدلّ على أنّه سخيف الإرادة، سقيم المزاج، تنقصه الإنسانية التي تحميه من الوقوع في مثل ما وقع فيه.

وهذا الطفيل بن عمرو الدّوسي، كان سيّد قومه، وكان إلى جانب ذلك شاعرا لبيبا، ومفكّرا سديد التفكير، يصيب ولا يخطئ في أكثر تصرفاته كان يروم المعالي فينالها لأنّ له شخصية ملئت إحساسا وإنسانية. قدم إلى مكّة أيّام الدعوة الإسلامية، فهرع إليه شخصيات من قريش، وأخذوا يحذرونه من ملاقاة محمّد (ص) ومن الاستماع إليه حتّى لا يتأثّر بدعوته، فيسلم، ويسلّم لإسلامه قومه، بنودوس وعندئذ يكونون إلى جانب

هذا وهو ضيف مكّة، محاطا بسياح من الفصاحة الخادعة، والبيان النفاقي، والإغراء الساحر، فخرج من كلّ ذلك سالما معافى من كل ما يخدش شخصيته النظيفة. وعند التفكير في ذلك ندرك أنّ هذا الرجل: الطفيل بن عمرو، كان ضابطا لنفسه، متحكما في عواطفه، سائرا على مبادئه الإنسانية، فتحصّن بذلك من كل ما يعرضها للمساس.

لنوازن بين الرّجلين: الطفيل بن عمرو، وعمرو بن هشام فكلّ منهما سمع من النبيّ (ص) آيات قرآنية، فتأثر الدوسي لما سمع، و لم يتأثر المخزومي، والسبب واضح فالطفيل بن عمرو إنسانيته، لينة، متفتّحة. وأبو جهل إنسانيته فظّة، غليظة، لا ترقّ ولا تلين، وإنّ الذي يطعن امرأة بحربته في فرجها، فيرديها قتيلة، لا لذنب إلاّ لأنّها أسلمت، لجدير بأن يكون فظا غليظ القلب، متحجّر الإنسانية وخلاصة الحديث، إنّ الإنسانية تهدي إلى الإيمان بالله.